Contents available at : http://jls.tu..edu.iq

Journal of Language Studies

ISSN 2616- 6224

The argumentation of Ibn Hazm al-Andalusi

M. Abtahal Abdul Karim Faisal Al Saadoun*
University of Tikrit / Faculty of Education for Girls
Hyousif@tu.edu.iq

Keywords:

-Poetry

- argument

-Ibn Hazm.

Article Info

Article history:

-Received 17/2/ 2018

-Accepted 26/2/2018

Available online 1/3/2018

Abstract: Because of the importance of the theory of modern (Almuhajja) in the extrapolation of our Arab heritage, we decided to research the mechanisms applied to the poetry of one of the most prominent flags of Andalusian thought, bin of the Bundesian al-Andalusi in an attempt to monitor how to convince the recipient and research in the sanctuaries of poetry and energies of Almuhaja in the purposes of Ibn Hazm's poetry

Argument is an artistic method as it is a rhetorical style employed by the poet in building his poetic speech and by provoking the recipient and pushing him to intensify the search for the hidden meanings that the poet tries to convey, as it is a linguistic peculiarity that makes it say and makes it stand up to the poetic level. The poetic language is primarily metaphorical language aimed at News as you do and enjoyment by moving to the static and usual of them in a wonderful way we hardly touch the words and complexity, , and thus achieve the argument these two goals (persuasion and pleasure) and show the efficiency of poets and the difference of poetry and the counterpart may be a disgraceful feature of you Or to turn it into quizzes

Thus, rhetorical techniques play a very important role in supporting argument which is not used by the poet just for the sake of the aesthetic beauty only; it is used for affecting and convincing the reader.Researching in the type of argument used in poetry, we can distinguish between argumentative and nonargumentative poetry.

* **Corresponding Author : M. Abtahal Abdul Karim Faisal Al Saadoun , E-Mail : Hyousif@tu.edu.iq ، Tel ، 009647701715071: Affiliation / Faculty of Education for Girls ، University of Tikrit - Iraq .**

المحاجة عند ابن حزم الاندلسي

م.م. ابتهال عبد الكريم فيصل السعدون
جامعة تكريت / كلية التربية للبنات

المستخلص

نظرا للأهمية البالغة لنظرية الحجاج الحديثة في استقراء تراثنا العربي ارتأينا البحث في آليات تطبيقها على شعر أحد ابرز اعلام الفكر الاندلسي وهو ابن حزم الاندلسي الظاهري في محاولة منا لرصد كيفية اقناع المتلقي والبحث في مكامن اغراض الشعر والطاقات الحجاجية في اغراض الشعر لدى ابن حزم .

ان المحاجة وسيلة فنية كما انها اسلوب بلاغي تداولي يوظفه الشاعر في بناء خطابه الشعري وبها يستفز متلقيه ويدفعه الى تكثيف البحث عن المعاني الخفية التي يحاول الشاعر توصيلها ،كما انها خصيصة لغوية تجمل القول وتجعله يرقى الى مصاف الشعرية ،فاللغة الشعرية لغة مجازية بالدرجة الاولى تهدف الى الاخبار كما تفعل جانب الإلذاذ والإمتاع وذلك بتجاوزها للثابت والمعتاد والإنزياح عنهما بطريقة رائعة لا نكاد نلمس فيها ابهاما ولا تعقيداً، وعليه تحقق المحاجة هذين الهدفين (الإقناع والإمتاع)وبها تظهر كفاءة الشعراء وبها يتفاضل الشعر وعلى النظير قد تكون ميزة مشينة للكلام بحيث تحوله الى احاجي والغاز

ومن هنا فإن للأساليب البلاغية دورا بالغ الأهمية في دعم القوة الحجاجية للقول، إذ لا يستعملها الشاعر من أجل إضفاء المسحة الجمالية فحسب؛ بل كذلك من أجل الإقناع والتأثير، وعن طريق البحث في أنواع الحجج المستعملة في الشعر يمكن لنا التمييز بين الشعر الحجاجي والشعر غير الحجاجي. كما تضطلع الأساليب الإنشائية-والتي يسميها التداوليون اليوم الأفعال الإنجازية- والأساليب المغالطية بوظيفة حجاجية؛ لكونها تدفع المتلقي للإنجاز والعمل.

الكلمات الدالة: الشعر، المحاجة، إبن حزم،

تمهيد

لطالما اعتبر الشعر واغراضه محط اهتمام دارسي الادب وميدانا خصبا للنقاد والباحثين على حد سواء فدرست الاغراض الشعرية وما حوته من أفكار ،ولكن قل من نجد يسلط الضوء على المحاجة ،والقدرة البلاغية التي تتضمن هدف الاقناع المتواجد في الاغراض الشعرية .
فمما لا شكّ فيه أن الشاعر الأندلسي لم يقف في مسيرته الإبداعيّة عند حدود التجديدات الموضوعيّة التي أدخلها على الموضوعات الشعرية الموروثة في شعره، بل تعدّى ذلك راسماً بريشته المبدعة أروع صور الإبداع والتجديد ، إذ أنّه أنتج تجديدًا آخر في تلك الموضوعات

العامّة وهو ما وسمه البحث بـ"المحاجة عند ابن حزم" ويريد بها تلك المحاجة التي تفرّعت من أصول الموضوعات الشعرية العامة ، وشكّلت المحاجة موضوعاً لافتا للنظر في دراسات المحدثين وكان لتلك التجديدات صدًى واسع في دراسات المُحدثين فلم يكتفوا برصد تجديدات الأندلسيين في الموضوعات الشعرية، بل راحوا يُقَلِّبون النظر في الاساليب البلاغية في محاولة منهم لاستكشاف مناطق الإبداع فيها، وقد نجح معظمهم في إبراز مواطن التجديد، وإظهار مناطق الإبداع التي برزت على ساحة الشعر الأندلسي ، وقد كشف أكثر من دارس عن أماكن التجديد، ومساحات الإبداع في "المحاجة" التي برزت في موضوعات الشعر التقليدية وكذلك في الظواهر الحجاجية التي ظهرت بوضوح على سطح الموضوعات المَوَسَّعَة، وقد حازت "المحاجة" التي كُشِف عنها في الموضوعات الشعرية مكان من بين الظواهر الشعر التي تناولها ابن حزم الاندلسي .

فالشاعر يخاطب عاطفة المتلقي ، ويحاول حمله على الاذعان مستعملا في ذلك أساليب الاغراء المتنوعة ليحقق الاثارة والتأثير فهو يحرص على ان يظهر بمظهر يعينه على بلوغ قصده0

فغاية المحاجة هي الاقناع والتأثير على الغير ،وجعل المتلقي يذعن لرأي المتكلم ويقبل به وهذه العملية التأثيرية تدعى المحاجة ،حيث ان كل خطاب يرمي الى تحقيق غاية معينة ويسعى الى التأثير على الغير ،والشاعر بدوره يريد اقناع مخاطبه بأفكاره ولكي يحقق هذا المقصد فانه يقدم حججاً لذلك ، ومن هنا فان الخطاب الشعري يؤدي وظيفة إقناعيه حجاجية فهو يؤثر في المتلقي بالصورة الجمالية واللغة والايقاع ،وفيه مزج بين الاقناع والامتاع [1] .

والشاعر بدوره لا يقوم بحشد الحجج بل يعتمد على استراتيجية معينة في الربط بين حججه، ويستطيع بذلك تحريك مشاعر المتلقي ويحدث انفعاله وبالتالي اقناعه ومدى مطابقة الوزن الشعري والقافية ومدى تأثيرهما في المتلقي ،وبالتالي تسليمه وأقناعه بالفكرة القائمة ،فالشعر (كلام موزون مقفى شأنه أن يحبب الى النفس ما قصد تحبيبه اليها ،ويكره اليها ما قصد تكريهه اليها لتحمل بذلك على طلبه او الهرب منه بما يتضمن من حسن تخييل له ومحاكاة مستقله بنفسها أو متصورة بحسن هيأة تأليف الكلام أو قوة صدقةو بمجموع ذلك، وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب، فإن الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثرها)[2]

لقد تحدث القدامى على قدرة الشعر على التأثير في النفوس حتى وسمو الشعر بالسحر ،لقد عد العرب قديما من جهابذة فن الكلام و التخاطب خاصة البلاغيين فكانت في لغتهم و فكرهم ميادين خصبة لفن الاقناع و الانتصار للفكرة بالحجة البارزة و البرهان القاطع من خلال فصاحة فذة ، و ظهر هذا جليا عند المشتغلين بالفكر لدى النحل المختلفة و على راسها قاطبة "المعتزلة " المحتكمين دوما للعقل وحكمه فكان مذهبهم مرتعا جيدا لنمو الحجاج وفن الاقناع ومن بين اشهر علماء البلاغة الاقناعية القديمة لدى العرب هم الجاحظ و ابن وهب والسكاكي.

فالشعر ينبني بالمواد نفسها التي ينبني منها النثر والفارق هو ان كل منهما يغلب في تشكيله مقومات على اخرى ، وهذا ما يميز الجنس الشعري عن الجنس النثري ويجعل كل منهما خطابا مميزا ،فالخطابة مثلا نوع من انواع النثر ولقد قام القدامى بالتمييز بين الشعر والخطابة فكثيرا ما ربط الحجاج بالخطابة وربط الشعر بالعاطفة ،لكن الحجاج قد يحضر بالشعر مثل حضوره بالخطابة دون ان يفقد شعريته وذلك ان الشاعر قد يحاجج من أجل الدفاع عن فكرته ليقنع قارئه مثله مثل الخطيب،حيث يعتمد المحاجج في شعره على استراتيجية معينة، حيث يخطط ويختار الحجج المناسبة التي تراعي غاية الغرض الحجاجي الاساسية وهي الاقناع ، وهذه الاستراتيجية هي (عملية تنظيم عملي يخضع لها المتكلم خطابه راصداً بواسطتها وسائل مختلفة لخدمة غايات معينة، فتكون تبعاً لذلك عملية واعية خطط لها المتكلم بشكل دقيق وباختيار موجه تحكمه نتائج الخطاب وغايته الحجاجية)[4] فكل متكلم يحدد خطة محكمة في شعره لتحقيق هدفه الإقناعي .

فمدار البحث حول قدرة المحاجة في الاغراض الشعرية ومدى تأثيرها على ذائقة المتلقي ،لكن اصل الدراسة ليس في الاقناع الضروري بقدر ماهي في (كشف المقنعات)كما يقول ارسطو، وفي هذا تركيز على الحجج ذاتها كوسيلة للأقناع

وقد وقع الاختيار على شعر ابن حزم لان شعره يتسم بعمق المعاني والميل الى التعليل وترتيب الافكار وطرحها ووضوحها ،كذلك استعمال اغراض الشعر في خدمة المحاجة ومدى موافقة الغرض الشعري للمحاجة التي تقضي الى أقناع الاخر وهو اسلوب بليغ من أساليب الحجة .

وببحثنا هذا عن المحاجة عند ابن حزم الاندلسي فإننا نبحث عن زاوية ربط المحاجة بالإقناع والتأثير في المتلقي .

المحاجة لغة

المحاجة : (اسم) ،محاجة مصدر حاج ، الجمع محاجات ،المحاجة يكثر من المجادلة ،أو سلسلة من الادلة تقضي الى نتيجة واحدة)
حاج :(فعل) محاجة وحجاجاً

حاج الشخص : أقام الحجة والدليل ليثبت صحة امر ، برهن بالحجة والدليل ليقنع الاخرين

محاج (اسم) محاج: فاعل من حاج ،

محاج :فاعل من حاجى

حاجّ الشخص: جادله وخاصمه ،نازعه بالحجة ،ناظره[5]

المُحاجة في الاصطلاح

هي نوعٌ من أنواع الحِجاج، ومعناها أن يردّ كل شخص على غيره عند التحدث حول موضوع معين وإنّ لفظة مُحاجة تعتبر من الألفاظ المستخدمة بشكل واسع في العلوم اللغوية، والدينية والفلسفية إذ إنّها تهتم بإثبات أو نفي قضية ما بالاعتماد على وسائل الإقناع المنطقي واللفظي ومن الأمثلة عليها المُحاجة حول مسألة قانونية بالاعتماد على مصادر التشريع المختلفة ويسعى المتكلم من خلال المحاجة الى تحقيق الاقناع والتأثير بوصفها أهم غرضين للمحاجة وعلى الشاعر ينتزع موافقة المتلقي او يقنعه فإنه يقوم بذلك من خلال التأثير في المتلقي و لا يكون الاقناع بالضغط على المخاطب لضمان التأثير عليه بل لابد من التهيئة والاستدلال على ما يقول حتى تصبح المحاجة وسيلة لتقاسم الرأي مع الاخر ، فكل خطاب يهدف إلى الإقناع بقضية معينة يحاول المتحدث فيها إيصال معنى إلى مخاطبيه مستخدما كل وسيلة ممكنة في إقناعهم وتأتي الصياغة اللغوية البلاغية لتساعد علي الإقناع والإمتاع فنجد امتزاج عنصر الإقناع بالتأثير، فالأديب حينما يعبر عن حقيقة يحاول أن يؤثر في نفس المخاطب لتقبل هذه الحقيقة أو التمكين لها فالتأثير غايته تحقيق التعاطف لكسب موقف المخاطب فهو نوع من الاستمالة العاطفية الخالصة ، فيكون المخاطب مستهدفا بها فهذا التأثير ذو الطابع العاطفي الوجداني إنما هو السبيل الممهدة إلى الاقتناع الذي هو ذو طابع عقلي.

و بصفة عامة فان كل نص شعري او ادبي تكون له اي جانب الوظيفة الشعرية وظائف اخرى مثل الوظيفة الانفعالية و الوظيفة التوجيهية الإقناعية و غيرها.

تقول بعض آراء المؤرخين إنّ فكرة الحِجاج انتقلت إلى الثقافة العربية من الثقافات الأخرى بالاعتماد على الترجمة من أجل تحقيق هدف ما وكُثُرَ استخدام الحِجاج في النقاشات والمجادلات والمؤلفات الفلسفية والبلاغية من أجل تثبيت المفهوم والردّ على المفاهيم الأخرى التي تشابها بالفكرة وتختلف معه بالمعنى أو العكس ممّا أدّى إلى اشتقاق العديد من المصطلحات اللغوية المعتمدة على مفهوم الحِجاج، مثل:(المُحاجة)، والاحتجاج، وغيرهما .

والمحاجة مشتقه من الحجاج ومن تعريفاته أيضاً هو مجموعة من النظريات التي تهتم بكافة أنواع العلوم والمعارف فتقيم عليها الدلائل لبيان مدى تماشيها مع الغرض المرتبطة فيه.

ومن الخصائص التي يتميز بها الحِجاج هي :

التشابه مع السياق: أي إنّ الحِجاج قد يؤدّي إلى استنباط حُجج أخرى أو نتائج جديدة من خلال دراستهِ للسياق النصي وهكذا تحتوي العبارة الواحدة على حِجةٍ واضحةٍ تُثبت القضية أو الفكرة المرتبطة بها .

النسبية: أي إنّ الحجة يجب أن تتميّزَ بالقوةِ لتأكيدها وقبولها فترتبط كل حجة بنتيجة معينة فمثلاً يُقدم شخصٌ حجة حولَ موضوع ما ويُقدم شخصٌ آخر حجة أخرى حول الموضوع ذاته فتُعتمد الحجة الأقوى وتُهملُ الحجة الأضعف بينهما .

القابلية للتبديل: أي إنّ كلّ حجة قابلة للتغيير بما يتناسب مع السياق والاتفاق والبراهين والدلائل المستحدثة وخصوصاً عندما تأتي حجة جديدة تُبطلُ مفعول الحجة السابقة لتحل محلها

ان الحديث على قضية التنوع في ايراد المصطلحات لاسيما مصطلح المحاجة حديث قديم في تراثنا البلاغي الذي برع انصاره في تقديم الحجج بغية اقناع الخصوم و افحامهم كما انها قضية قامت على انقضاها مدارس واثيرت حولها الخصومات وهو ما ادى الى تشتت هذه المصطلح وتداخله مع مصطلحات بلاغية كثيرة.

ومن النقاد العرب القدامى من تطرق الى هذه الظاهرة حازم القرطاجني(ت684) تحت ما سماه الحيل الشعرية وحديث عن التمويه والمخاتلة ولعل تركيزه كان اكمال للجهد الذي بذله ارسطو (ت322 ق.م) وعده وسيلة من وسائل الاقناع التي لا يتقنه الا فحول من شعراء ممن لهم قدرات عالية ذلك ان الحيل تعين الشاعر على تحقيق وظيفته وتأدية مهمته وتمكنه من النجاح في الاغراض الشعرية

فليس المطلوب في الشعر ان يكون صادقا او كاذبا وانما كيف يمكن ان يؤدي هذه الكلام بتناسق وانسجام مع القضية التي يريد الشاعر معالجتها للوصول الى الافهام ، لذلك نجد حازم القرطاجني ينصح الشعراء على تنويع اساليب الكتابة الشعرية فذائقة النفسية تنفر من المعتاد وتحاول اكتشاف اساليب اخرى لتصل في الاخير الى معنى لم يكن ليرى من اول وهله[6] .

فالشاعر يوهم متلقية بهذا الاسلوب البلاغي ويبلغه فائدة هذا الكلام والشعر لن يفهم مالم يأخذه قارئ متمكن يعيد تشكيلة من جديد فيفهم مقصود الشاعر منه ، والمحاجة موجودة في الشعر كما موجودة في النثر الا ان انها في الشعر امتع وابلغ، وما ذلك الا لان الشعر مادته التخييل، وهي وسيلة فنية كما انها اسلوب بلاغي يوظفه الشاعر في بناءه خطابة الشعري وبها يستفز متلقيه ويدفعه الى تكثيف البحث عن المعاني الخفية التي يحاول الشاعر توصيلها ، كما انها خصيصة لغوية تجمل القول وتجعله يرقى الى مصافي الشعرية فاللغة شعرية لغة مجزية بالدرجة الاولى تهدف الى الاخبار كما تفعل جانب الامتاع .

ابن حزم الاندلسي

هو علي بن احمد بن سعيد بن حزم الظاهري المكنى ابو محمد ولد في قرطبة سنة (384-456)هجري في بيت جاه وثروة وترف وسلطة وكان ابوه وزيرا للمنصور ابن ابي عامر كان ابن حزم قديرا في التفسير حافظا للحديث فقيه وعالما لغويا ومؤرخ بارع ومفكر رصين وله الكثير من الكتب والمجلدات غير ان كثير من كتبه ضاع اثر الفتن والنكبات التي وقعت في قرطبة[7]

لقد شهد الذين كتبوا عن ابن حزم له بالشاعرية والإبداع الأدبي، على الرغم من شهرته بالفقه الشرعي حتى كادت الناحية الأدبية الحزمية تغيب عن أذهان الناس، ويُعدّ ابن حزم من العلماء القلائل الذين جمعوا بين قوة الفكر ورقة الأدب والفن. وقد ظهر ذلك في كثيرٍ من آثاره الباقية، فعلى سبيل المثال مؤلَّفُه(طوق الحمامة) الذي جمع بين الإبداع النثري والشعري في موضوع الأُلفة والأُلّاف، بل هو أهم كتبه على الإطلاق في هذا الميدان. إضافة إلى ما يحتويه من جدة

في الموضوع، ومن تحليلات نفسية أخلاقية عميقة لم يُسبق إليها، ومن منهجية مبتكرة في العرض والتحليل. ويمتاز أسلوبه النثري في هذا المؤلف الفريد بالجمع بين قوة التدفق، ودقة الوصف والتحليل ومتانة السبك والبعد عن التكلّف والصنعة، إذ كان يأخذ على الكثير من معاصريه الصنعة التي كانوا يكتبون بها، أو ينظمون بها أشعارهم.

نشأ في بيت معروف بالعلم والجاه، وكان والده عالمًا موفور المال يعيش في بيت الوزارة، من وزراء المنصور وابنه المظفر من بعده، فهيأ ذلك لابن حزم حياة الرفاهية، فتعلم في حياته الأولى علم أبناء الأكابر من حفظ للقرآن والشعر وتعلم للخط والكتابة، وورث عن أبيه الشرف والجاه فأصبح بعد ذلك وزيرًا لعبد الرحمن المستظهر بالله، ثم لهشام المعتضد بالله من بعده.كان إقباله على طلب العلم شديدًا وكانت همته عالية، فلم يشغله طلب المال والجاه عن أقرب شيء لنفسه وهو العلم، عني بالمنطق فألف فيه ثم أوغل في العلوم الشرعية وصنف فيها مصنفات عديدة، وكان يميل في بداية حياته إلى مذهب محمد بن إدريس الشافعي، ثم عدل عنه إلى رأي أهل الظاهر وغلبت شهرته على شهرة صاحب المذهب داود الظاهري.
تعرض في حياته لمحن كثيرة وحرقت كتبه في عهد المعتضد ؛ وذلك لتأليب الفقهاء عليه وتحريضهم الأمراء، وقيل إنه لا يجيد سياسة العلم، وربما يكون سبب ذلك ما اشتهر به من حدة لسانه وقسوة نقده ووقوعه في بعض الأئمة توفي سنة 456 هجريه، وقد شغل الدنيا على أيامه وبدأ يشغل من اهتمام المفكرين ساحة تزداد كل يوم تساعًا لما تميز به من الأصالة والتجدد والصدق والشجاعة[8]

ونلاحظ أنه بعد انقطاعه للعلم والتأليف ، كان ينظر إلى الشعر من حيث (هو ميدان للنزعة الروحية) [9] (وإن الناظر الى ابن حزم ونشأته الاولى ثم حاله بعد ذلك ليدهش لما أصابه من تقلبات في الاحوال وعدم تخاذله أمامها ويدرك أن حياته صورة للإرادة التي لا تعرف التردد)[10] ونجد ان شعره متين جزل يغلب فيه المعنى على اللفظ وقد رصدت له اكثر من مئة قصيدة منها قصائد ومنها مقطعات شعرية في اغراض متنوعة

اتسم شعر ابن حزم بالخصائص التالية[11]

1- التعمق بالمعاني وتوليها بعضها من بعض أكثر من العناية بالألفاظ
2- كثرة الحكم في شعره
3- الروح الجدلية في شعره
4- كثرة المصطلحات في شعره من مصطلحات فقهية وفلسفية وغيرها

كان موسوعي الثقافة ملماً بأكثر ميادين المعرفة ،حتى اننا نستطيع ان نعده ظاهرة فكرية متميزة في تراث الاندلس ، ومن القدماء من وصفه (اجمع اهل الاندلس قاطبة لعلوم الاسلام وأوسعهم معرفة مع توسعه في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسيروالاخبار)[12]

المحاجة العاطفية

كان الشعر ولا زال النبض الموحي لحياة الإنسان العربي والمعبر عن الحالة النفسية يكشف عن مكنونات نفسه مستعيناً بكل ما يوصل إحساسه إلى المتلقي من هنا كانت دموع ابن حزم تشكو الفراق تارة وتعلن عن مكنون نفسه من الضعف لتستعطف تارة أخرى كما عمد الشاعر إلى دفع المتلقي لمشاركته إحساس الفراق ولوعته من خلال توظيف الحوار الذي أضفى على النص بعداً تأثيرياً اشد لدى المتلقي ،فنجد المحاجة تعتمد في شكلها على الإقناع لأنها تعمد على

وسائل احتيالية بقصد اقناع المخاطب للوصول للهدف المطلوب ومنها المحاجة التي تعتمد على الترغيب والعاطفة .

لقد عبر ابن حزم عن مشاعره تجاه المرأة كما لم يفعل فقيه من قبله ولا من بعده بصدق وصراحة واعتبر عاطفة المحبة بين الرجل والمرأة نعمة من الله تعالى فهو لم يكن فقيها جافي العواطف أو مرائيا يتنكر لما بث الله في قلبه من عواطف إنسانية نبيلة كما أنه لم يكن كبقية شعراء الغزل التقليديين الذين يستوحون لغتهم الغزلية مما يحفظون من شعر وهم يرددون أوصافا لنساء لا وجود لهن في الواقع جريا على العادة والتقليد، بل إنه صدر عن تجربة حية وتحدث عن نساء واقعيات من مجتمعه وذكر بعضهن بأسمائهن الحقيقية، فيقول [13]:

أتى طيف نعم مضجعي بعد هدأة وليل سلطان وظل ممدد
وعهدي بها تحت التراب مقيمـــة وجاءت كما قد كنت من قبل أعهد
فعدنا كما كنا وعاد زماننـــــــــا كما قد عهدناه قبل والعود أحمـــد

لقد أسس ابن حزم لغة غزلية أخرى مخالفة لما كان معهودا لدى معظم الشعراء وهي لغة قائمة على الصدق والواقعية وعلى تجارب عاطفية حقيقية مرَّ بها كما أن المرأة التي يصفها أو يصف حبه لها امرأة واقعية معينة.

ويعد ابن حزم أول من قام بتقنين الحب العفيف في الأندلس من خلال رسالته (طوق الحمامة) هذا ما أشار إليه غارسيا غومس[14] ويقول الراهب الإسباني" آسين بلاثيوس"(يمكن اعتبار ابن حزم نموذجاً للحب الروحي العفيف الذي يسميه علماء النفس الحب الأفلاطوني أو الرومانتيكي)[15]فمظاهر العفة في شعر ابن حزم كثيرة جدًا و تصويره لعفة النفس وقناعتها واكتفائها بالنظر الى المحبوبة ورضاها بالعذاب والمعاناة حيث يقول[16]:

فإن تنأ عَنِّي بالوصال فإنني سأرضى بلحظ العَينِ إن لم يَكُنْ وَصلُ

ويرى أن وصل الروح ألطف ألف مرة من وصل الجسد وهذه قمة العفة فقد ألبسها ثوبًا ملائكياً يقول[17]:

ووصلُ الروح ألطف فيكَ وَقَعاً مِن الجِسم المَواصِل ألف ضعفِ

وعن وصف شعره العاطفي يقول د.خليفة : (وشعره الذي يتحدث فيه عن ذاته كثير ،وجميعه ينبض بالحياة ،ويعبر عن إحساسات مرهفة و مشاعر صادقة)[181]

والقضايا التي سبقت نضمها ابن حزم شعرا فيقول[19] :

أهوى الحديث إذا ما كان يذكر لي فيه ويعبق لي عن عنبر أرج
إن قال لم استمع ممن يجالسني إلى سوى لفظة المستطرف الغنج
ولو يكون أمير المؤمنين معي ماكنت من أجله عنه بمنعرج
فإن أقم عنه مضطراً فإني لا أزل ملتفتاً والمشي مشي وجي
عيناي فيه وجسمي عنه مرتحل مثل ارتقاب الغريق البر في اللجج
أغص بالماء إن أن1كر تباعده كمن تثاءب وسط النقع والوهج
وإن تَقُل ممكن قصد السماء أقُل نعم وإني لأدري موضع الدرج

وهو في غزله يلجأ الى المقايسة ما بين الاحترام لأمير المؤمنين و ما بين تعلقه بحبيبته وهو يلجأ الى بيان معزة الحبيب بهذه المقارنة اشعارا بوضع حجة امام المتلقي بان الحبيب افضل من كل الناس وقدره اعلى قدرا من امير المؤمنين ، ويلحق بهذا التصوير لإقامة الحجة كل ماله صلة بالبيان والايضاح مما له تعلق بالحياة المتناقضة وان كانت هذه الصورة غير بعيدة عن متناول الشعراء ، ولكن ابن حزم بما عرف شخصية يميل الى الادلة المقنعة التي هي انعكاس لثقافته وثقافة عصره وبما انه رجل فقه يضع الدليل على ما يطرحه من قضايا تحتاج الى دليل.
ونراه في أبيات أخرى يتكأ على ثقافته لكي يثبت تعلقه بالمحبوب في نقل مشاعره الخاصة جراء وقوعه في الحب ويأتي بالحجة على ذلك فيصور ان هذا امر مكلف به وهو يطارد النجوم في صور تتداخل فيها الرؤيا حتى يصل الى تحرك النجوم واسمائها ومنازلها ويسند ذلك الى العالم الفلكي بطليموس، حيث انه اقوى منه على تحمل السهر والمراقبة وذلك في حجته هذه كثر ذكر النجوم وثبوتها وتحركها فيقول[20] :

أرعى النجوم كأنني كلفت أن أرعى جميع ثبوتها ثبوتها والخنسي
فكأنها والليل نيران الجوى قد أضرمت في فكرتي من حندس
وكأني أمسيت حارس روضة خضراء وشح نبتها بالنرجس
لو عاش بطليموس أيقن أنني أقوى الورى في رصد جرى الكنس

نلاحظ الشاعر يستعمل الفاظ للدلالة على الشكوى من الحبيبة والرعاية المستمرة لها فيدعمها بحركة الافعال (أرعى ،أمسيت ،أيقن ،رصد)،فإسناد الافعال مثل هذه الاسماء أنتج لنا عواطف دالة على ثبوت ما هو فيه مع وضوح الحجة والبرهان . لان الشاعر المبدع هو من يشركنا في مشاعره وأفكاره بعد صياغتها فنياً ومن ثم يجعلنا نشاطره إحساسه ومدركاته ونمنحه تعاطفنا وهو يحاور ليعرض معاناته لجفاء المحبوب .
وتتسم أشعاره في هذا الباب بالنزعة العذرية التى لا مجال فيها للعبث بصورة المرأة أو قيمة العفة، ولذلك تجده يفرق بين الحب الحقيقي وبين مجرد الاستحسان الجسدي ويحتج على من يزعم كونه يحب اثنين في آن واحد قائلا: [21]:

كذب المدعي هوى اثنين حتمـــا مثل ما في الأصول أكذب مــاني
ليس في القلب موضع لحبيـــبيـ ن ولا أحدث الأمور بثانـــــي
فكما العقل واحد ليس يـــــدري خالقا غير واحد رحمـــــــان

فكذا القلب ليس يهـــــــــوى غير فريد مباعد أو مـــــــدان
هو في شرعة المودة ذو شـــــك بعيد من صحة الإيمـــــــان
وكذا الدين واحد مستقيـــــم وكفور من عنده دينـــــــان

فهو يعد التعدد في الهوى كفرا وعدولا عن الوفاء و يستنكر أن يحب الرجل شخصين دفعة واحدة ويعد ذلك من قبيل الشهوات الجسدية ليس إلا، وهي من صفات الرجل الملول الذي يتقلب في أهوائه ولا يستقر على عاطفة واحدة... وليس هذا من الحب الحقيقي الذي هو أولا وقبل كل شيء تشاكل بين النفوس وتوحدها في خصائص معينة...كما فصل ذلك في طوق الحمامة.
وهكذا يربط ابن حزم عاطفة المحبة التي تربط الرجل بالمرأة بالأخلاق، بل إنه يربط الأخلاق في كل ما يصدر عن الإنسان من مشاعر وأفعال وأفكار... فالصدق والعفة والوفاء قمة القمم في السلوك البشري.
إذا فهو يرى بأن قمع هذه العواطف أو إخفاءها يعد نوعا من الكذب والرياء كما أنه لا يود أن يسلك مسلكا ازدواجيا وهو الغالب على المجتمع الأندلسي، حيث التدين والتقوى في الجانب الظاهري والانحلال والشذوذ في الجانب السري من حياتهم، وأن الذين يلومونه رجال لم يعرفوا معنى المحبة قط ولم تنفذ أشعتها إلى قلوبهم الجافة اذ يقول[22]:

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهوى وسيان عندي فيك لاح وساكت
يقولون: جانبت التصاون جملـة وأنت عليهم بالشريعة قانــت
فقلت لهم، هذا الرياء بعينــه صراحا وزي للمرائين ماقــت
متى جاء تحريم الهوى عن محمد وهل منعه في محكم الذكر ثابـت
إذا لم أواقع محرما أتقي بـــه مجيء يوم البعث والوجه باهـت
فلست أبالي في الهوى قول لائـم سواء لعمري جاهز أو مخافت
وهل يلزم الإنسان الا اختيــاره وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامـت

فما كان منه إلا أن يرد عليهم مجادلا ومدحضا أقوالهم بالحجة ..ويبين لهم أن القلوب بيد الله تعالى وما يلزم الإنسان سوى معرفة الصواب من الخطأ في ذلك، فالمحبة فطرة وخلقة وإنما يملك الإنسان جوارحه المكتسبة، خصوصا وأنه وهب من رقة المشاعر وحب الألفة شيئا كثيرا.
وانطلاقا من هذا الفهم العنيف لعاطفة المحبة، فإنه لم يجد حرجا في التعبير عن عواطفه، الصادقة ومشاعره تجاه المرأة التي أحبها ولعل من أروع شعره في هذا المجال الأبيات التالية[23]:

وددت بأن القلب شق بمديـــــة وأدخلت فيه ثم أطبق في صـدري
فأصبحت فيه لا تحلين غيـــره إلى ملتقى يوم القيامة والحشـــر
تعيشين فيه ما حييت فإن أمـــت سكنت شغاف القلب في أحكم التبر

فهذا الفيض من المشاعر الصافية وهذا التدفق العاطفي نادرا ما صدر عن الشعراء العرب في أشعارهم الغزلية وعلى غرار الأبيات السابقة ما قاله عندما نعي إليه من كان يحب فقام فارا بنفسه نحو المقابر حيث أنشد هذه الأبيات متحسرا متلهفا على المحبوبة الفقيدة[24] :

وددت بأن ظهر الأرض بطـــــن وأن البطن صار منها ظهـــــرا
وأني مت قبل ورود خطـــــب أتى فأثار في الأكباد جمـــــرا
وأن دمي لمن قد بان غســـــل وأن ضلوع صدري كن قبـــــرا

نرى أن الشاعر يستثمر حججا ويوظفها في شعره؛ ويوجه المتلقي نحو النتيجة التي يبتغيها، حينما يريد إقناعه بأفكاره والتأثير فيه، ولكون المحاجة تبحث في مقاصد المتكلمين، فلا تقتصر الدراسة فيها على اللغة العادية فحسب؛ بل يمكن تطبيقها كذلك على الخطاب الشعري ، وانطلاقا من هذا الفهم الراقي عند ابن حزم لعاطفة المحبة، فإن صورة المرأة ترد في أشعاره مشرقة ومشرفة، في كثير من قصائده ومقطوعاته التي يتضمنها كتاب طوق الحمامة ، منها على سبيل المثال هذه الأبيات التي يصف فيها طريقة مشيها، وصفا رقيقا ودقيقا ينم عن دقة ملاحظة وبراعة المحاجة تبرز في التشبيه والتصوير[25] :

كأنها حين تخطو في تأودهـــــا قضيب نرجسة في الروض ميـاس
كأنما خلدها في قلب عاشقهـــــا ففيه من وقعها خطر ووســـواس
كأنما مشيها مشي الحمامـــــة لا كد يعاب ولا بطء به بـــــــاس

فانظر إلى هذه الدقة في تشبيه مشية هذه المرأة، فتارة هي قضيب نرجسة مياسة، وتارة يشبه وقع خطواتها لخفتها كأنها خاطرة أو وسواس (فكرة) بقلب عاشقها وتارة يشبهها بمشية الحمامة حيث لا كد أو تعب أو سرعة ولا بطء به باس ، فتشبيه الشاعر هنا هو ان يماثل بين المشبه والمشبه به ،فيجعل المتلقي يعقد مقارنة بينهما ويحاول معرفة وجه الشبه بينهما ،فأن أحسن الشاعر في ذلك أسهم في أقناع المتلقي بما يقول ،ذلك ان التشبيه (يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ،فأحسن التشبيه ما وقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات اكثر من انفرادهما فيه حتى يدني بهما الى حال الاتحاد)[26] ، وقد كان ابن حزم جدليا يحب الانتصار والغلبة ويميل الى الافحام والاقناع ، وقد تسرب ذلك الى شعره فيقول في معنى انتظار الزيارة [27]

أقمتُ الى أن جاءني الليل راجياً لقاءك يا سؤلي ويا غاية الامل
فأيأسني الإظلام عنك ولم أكن لا يأس يوماً إن بدا الليل يتصل
وعندي دليل ليس يكذب خبره بأمثاله في مشكل الامر يستدل
لأنك لو رمت الزيارة لم يكن ظلام ودام النور فينا ولم يزل

فابن حزم يريد ان يصف جمال المحبوبة بالإضاءة حتى يتبدد ظلام الليل ونجد المحاجة في الالفاظ (وعندي دليل،مشكل الامر،لأنك لو)وكل هذه الاساليب تليق بالمناظرة والحجاج فالشعر لايكون شعرا الا بقدر اقترابه من تكوين صورة فنية يتم فيها التجريد العيني والتصوير الفني والانتقال الى المجاز،حيث تمتلك الأنغام الأسماع فتستولي على النفس بإبداع وتؤثرعليها لتحدث الإمتاع فالطابع الإيقاعي يحدث الانفعال في ذهن المتلقي فيكسب الخطاب نفسية حجاجية قوية ومن ميله الا الافحام والغلبة وقوله فيمن أحب في محبوبة صفة لم يستحسن بعدها غيرها[28]:

يعيبونها عندي بشقرة شعرها	فقلت لهم هذا الذي زانها عندي
يعيبون لون النور والتبر ضلة	لرأي جهول في الغواية ممتد
وهل عاب لون النرجس الغض	عائب ولون النجوم الزاهرات على البعد
وأبعد خلق الله من كل حكمة	مفضل جرم فاحم اللون مسود
به وصفت الوان اهل جهنم	ولبسة باك مثكل الاهل محتد
ومذ لاحت الرايات سودا تيقنت	نفوس الورى ان لا سبيل الى الرشد

نجد الشاعر يرغب صفة الشقرة في محبوبته لفرض مشاعره وايرادها بالوجه المؤثر لفرض فكرته التي أراد ان ينظمها في شعر وقدرته على التوظيف الجزئي للمحاجة والتي من ضمنها انتقاد لجماعة الرايات السود في المشرق .

فهذه أهم عناصر التجربة العاطفية لدى ابن حزم ،فقد جاءت معظمها بغير تكلف بل كانت نتائج بلاغة عفوية وفصاحة لسان مع تضمين المحاجة في اغلب الابيات للتأثير في المتلقي وبالتالي اقناعه .

المحاجة السياسية

تعرض المفكر والفقيه في مدينة قرطبة المحن والفتن ولئن كانت هذه المحن نموذج من ادران النفس البشرية عندما تضطرم في جوانبها نار الحقد والضغينة ، فأن ضررها يصيب الافراد من الامة والجماعة منها لذا يمكن ان نعتبر الضرر محدودا زمانا ومكانا ، لكن هناك ضرب آخر من المحن يتمثل في حرق كتب المفكرين وابداعات المبدعين ومصنفات العلماء وهذا اشد انواع البلاء لان ضرره يشمل المجتمع بأكمله والامة باسرها بل الانسانية قاطبة حاضرا ومستقبلا اليس في حرق الكتب محاولة لإيقاف نمو العقل البشري وبالتالي ايقاف التطور الفكري والحضاري؟ انها بحق الجريمة الكبرى ضد الانسانية جمعاء وفي الاندلس تعرض العقل البشري للمصادرة ، وقف المنافقون من ادعياء الفكر سهامهم نحو انتاج العقول النيرة فأصبح مستهدفآ لأنه يفضح زيفهم ويكشفهم خداعهم فعمدوا نكايته وتشفي الى دسائس يحيكونها وحفلات الحرق يقيمونها قربان لشهواتهم فأشعلوا النار لإطفاء نور المعرفة واخماد نور العقل وهكذا احرقت كتب ابن الحزم افكاً وهذا سر من اسرار افول الاندلس سياسيآ واجتماعيآ وبقاءها

نسيبيا وحضاريا وفكريا وهو سر قد لا نكون فهمناه نحن العرب الى اليوم، يقول عند احراق كتبه محتجا [29]:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدري

يسير معي حيث استقلت ركائبي ويُنزل إن أنزل ويدفن في قبري

دعوني من إحراق رقٍ وكاغدٍ وقولوا بعلمٍ كي يرى الناس بدري

وإلا فعودوا في المكاتب بدأة فكم دون ما تبغون لله من سترِ

وقد كان ابن حزم قد شكا من تحول أخلاق الناس ومن مضايقة أهل زمانه وكيدهم، وله في ذلك عدة قصائد، منها هذه الابيات التي ظاهرها الافتخار وباطنها محاجة تفضي الى أسى مرير وحسرة مؤلمة لما قوبل به علمه من إنكار وجحود [30]:

أنا الشمس في جو العلوم منيـــرة ولكن عيبي أن مطلعي الغـــــرب
ولو أنني من جانب الشرق طالــع لجد على ما ضاع من ذكري النهـب
ولي نحو أكناف العراق صبابـــــة ولا غرو أن يستوحش الكلف الصـب
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهـــم فحينئذ يبدو التأسف والكـــــرب
فكم قائل أغفلته وهو حاضـــــر وأطلب ما عنه تجيء به الكتـــب
هنالك يدري أن للبعد قصـــــــة وأن كساد العلم آفته القـــــــرب

إن حسرة ابن حزم تبدو واضحة في هذه القصيدة حسرته على ضياع علمه وسط أناس لا يقدرونه حق قدره وفي القصيدة شوق الرحيل إلى العراق كبديل آخر، إن أزمته مع أهل عصره كونه يعيش بينهم فلو كان بروزه من جهة الشرق لقدروا علمه ، لقد امتحن ابن حزم بالناس وتسقطوا أخباره في فضول عجيب قصد الإيقاع به لدى الحكام.

(لعل أحفل شعر أبن حزم أخصبه عناصر القصائد التي يفخر فيها بنفسه ويدافع عن غاياته ويصف تواطؤ الخصوم على النيل منه والحط من قدره)[31]

ومما قاله في هذا الصدد قصيدة، نقتصر فيها على هذه الأبيات التي تتسم لهجتها بالاحتجاج ولغتها بالغضب والاستنكار[32]:

إني لأعجب من شأني وشأنهـــم و احسرتا إنني بالناس ممتحـــن
ما إن قصدت لأمر قط أطلبـــــه إلا وطارت به الأضعان والسفـن
أما لهم شغل عني فيشغلهـــــم أو كلهم بي مشغول ومرتهـــن
دعوا الفضول وهبوا للبيان لكـــي يدري مقيم على الحسنى ومفتتن
وحسبي الله في بدء وفي عقـــب بذكره تدفع الغمام والمحـــــن

فالحسد والنميمة والفضول في تسقط الأخبار رذائل تثير حفيظة ابن حزم، وتثير مشاعر الغضب في نفسه، وقد عملت أساليب النداء والأمر والتعجب وغيرها من الأساليب الإنشائية على إبراز هذا الجانب الانفعالي في نفسه اتجاه تلك الفئة من الناس، وقد أشار إلى هذه الظاهرة في كثير من مؤلفاته وأورد الأمثال والحكم في ذلك منها: "أزهد الناس في عالم أهله" ويأتي بقول عيسى

عليه السلام: "لا يفقد النبي حرمته إلا في بلده)[33] إلى آخر هذا في كتبه المتفرقة وإذا كان ابن حزم، قد شكا من بعض الحساد والمناوئين من أهل عصره، وتحسر على افتقاد كثير من القيم كقيمة المحبة والوفاء والمودة 0بين الناس والعلم....

(كلما كان الشاعر صادقا فَي معاناته،ساعيا الى تبليغ خطاب ما راميا الى التخاطب والتواصل مع الاخرين له غاية واضحة وهدف محدد يرمي اليه كلما كان شعره اكثر حجاجية)[34]

وعندما تروض الاقدار الشاعر وتلقي به في خضم أحداث جسام فإنه بالمقابل، له أشعار في تمجيد الصداقة والمودة التي مازالت تربطه ببعض رجالات وأدباء عصره، منهم عبيد الله بن عبد الرحمن بن المغيرة (ابن أمير المؤمنين الناصر) وكان صديقا لابن حزم، ومما قاله، موجها الخطاب لهذا الصديق، مؤكدا فيه على المودة التي تجمع بينهما، هذه الأبيات[35] :

أودك ودا ليس فيه غضاضـــــــــة وبعض مودات الرجال ســـراب
وأمحضك النصح الصريح وفي الحشا لودك نقش ظاهر وكتـــــــاب
ومالي غير الود منـــــــــك إرادة ولا في سواه لي إليك خطـــــاب

فالشاعر يحاول إظهار شعور الود والنصح في قلب صديقه ابن الخليفة وذلك من خلال سبك لفظي وحبك للمعاني التي أدت وظيفة تأثيرية حجاجية في السامع مما يؤدي به إلى الوصول إلى درجة من الاقتناع الباطن بما يقول، وبذلك يصل ابن حزم إلى مقصديته من نظمه وبهذا تكون هذه الألفاظ قد أدت بعدا تواصليا مع الآخروهو المتلقي .

المحاجة الفلسفية

المحاجة الفلسفية هو نوعٌ من أنواع الحِجاج ويُسمّى بفن الإقناع العقلي إذ يعتمد على حجج منطقية ويطلق عليها مُسمّى الاستدلال كما أنّه يسعى لوصف وتوضيح المنطق الداخلي الخاص في الخطاب الحجاجي للتأكد من ترابط عناصره معاً، لذلك يسعى المحاجة الفلسفية إلى تطبيق الاعتماد المباشرعلى منطق العقل في طرح الحجج ، ومادام ابن حزم يغلب في شعره عن عاطفة أو تجربة صادقة فلا بد من أن هناك أثراً لصناعة الاتجاه العقلي والفلسفي في شعره أو بمعنى اخر هذا الشعر صادر عن ثقافة ابن حزم معبر عن اتجاهاته العلمية.

وقد كان ابن حزم صاحب منهج عقلي حيث يقول:(ان المرجوع اليه حجج العقول وموجباتها فان العقل انما هو مميز بين صفات الاشياء الموجودات ،وموقف المستدل به على حقائق كيفيات الامور الكائنات وتمييز المحال منها)[36] والناظر في شعر ابن حزم الذي تضمنه طوق الحمامة يجد تأثيرا واضحا بالمصطلحات الدينية واللغوية والفلسفية والحكمة ،وميلا الى الجدل والمحاجة التي تؤدي الى الاقناع ،وهي الملامح المميزة لشعر ابن حزم ،فمن تأثره بالفقه وأصوله وعلوم الدين قوله[37]:

وأعدل في اجتهاد نفسي في الذي أريدُ وإني فيه أشقى وأتعب
وأصرف نفسي عن وجوه طباعها إذا في سواها صح ما أنا أرغب
كما نسخ الله الشرائع قبلنا بما هو أدنى للصلاح وأقرب
وألقى سجايا كل خلق بمثلها ونعت سجاياي الصحيح المهذب
كما صار لون الماء لون إنائه وفي الاصل لون الماء ابيض معجب

وعلى الرغم من غلبة الأسلوب الإنشائي إلا أن الشاعر كسر طوق جموده بتكراره وكسره للقافية، فتكرار ألفاظ الفلسفية لم يكن مجرد كشف عن الجانب النفسي للشاعر بل أضاف قيمة فنية في النص عندما وظف لتقوية المعنى وتأكيدها وليكون أثرها ابلغ في المتلقي وادعى إلى تحقيق الاستجابة فضلا عن الصورة الفنية التي أضفى على النص طابعاً حجاجيا مؤثرا في المتلقي ، فنراه يجنح الى الجدل وابداء الحجج وعيب الرأي المخالف ومن ذلك اللون الاحتجاج الفلسفي ويتخذ التصوير وسيلة للإيحاء فيقول[38] :

ويامن لامني في حب من لم يره طرفي

لقد افرطت في وصفك لي في الحب بالضعف

فقل هل تعرف الجنة يوماً بسوى الوصف

فشاعرنا يوظف ثقافته الدينية ليحتج لان الوصف مقبول ومحبب ، فابن حزم قد أحب جارية وأخذ يصفها ويصف حالته معها ،فإذا بالعاذل يقف له بالمرصاد فيقول له ما فائدة الوصف وما دلالته على الواقع ؟ فيأتي بالحجة الدامغة مستندا الى ثقافته الدينية فإن الجنة لم تعرف الا من خلال الوصف ولذلك قال في من لامه في حبه لشخص لم يره وبلا شك ان الوصف قد يحدد كثيرا من الملامح وينقل بعض اجزاء الحقيقة ان لم يكن جلّها .

وإذا قلنا ان ابن حزم رجل فقيه يأتي بالحجة تلو الحجة ليثبت قوله فانه جعل ذلك ديدن في كل شعره يقول [39] :

زمام أصول جميع الفضائل عدل وفهم وجود وباس

فعن هذه ركبت غيرها فمن حازها فهو في الناس راس

كذا الرأس فيه الامور التي بإحساسها يكشف الالتباس

وله ابيات اخرى في المحاجة العقلية فهو يجعل التفكر بالعقل اساس الحياة إذا كان محصناً بالإخلاق الحميدة والعلم[40] :

إنما العقل أساس فوقه الاخلاق سورُ

فتحلَّ العقل بالعلم وإلا فهو بورُ

ثم يدعم ابن حزم خطابه الفلسفي بأبيات شعرية يحكيها عن نفسه تحمل في طياتها رؤى محاجة فلسفية خاصة البيت الرابع منها[41] :

ودادي لك الباقي على حسب كونه تناهى فلم ينقص ولم يزد

وليست له غير الارادة علة ولا سبب حاشاه يعلمه احد

إذا ما وجدنا الشيء علة نفسه فذاك وجود ليس يفنى على الابد

وإما وجدناه لشيء خلافه فإعدامه في عدمنا ماله وجد

فكانت الابيات الشعرية فلسفية ألا انها واضحة باعتبارها مقدمة بكلام نثري يشرحها لتأتي بدورها وتجعل منه شعراً فلسفياً بعد ان كان نثرا ضمن الخطاب الفلسفي .

تبقى المحاجة مثيراً اسلوبيا يقوم على الانحراف والغموض والتكثيف وهو مايجعل الخطاب الشعري مفتوح على تأويلات كثيرة يحاول كل قارئ فيها الوصول الى المعنى ومتى أدركه شعر بلذة الخطاب الشعري

المحاجة الدينية

هي خلاصة تجاربه وتعبير عن نظراته في الدهر والزمان وتأملات في أخلاق الناس وفي الحياة والموت وما بعد الموت، وهي قصائد طويلة نسبيا قياسا مع أشعاره الأخرى في الموضوعات التي سلف عرضها يقول د.عبد الكريم خليفة:(وإذا ما تتبعنا ابن حزم في أشعاره في الحب وجدناه يبلغ حد الرمزية الصوفية وهو الظاهري المتشدد في مذهبه)[42] وكأن ابن حزم يهرب إلى هذا الجانب الروحاني الغيبي كلما ضاقت نفسه ذرعاً بالتشدد في الاخذ بالظاهر

ومن الأبيات التي يؤكد فيها على قيمة الدين وقيمة العرض معتبرا ما دونهما من أمور الحياة يسير لأنها لا تدوم قائلا [43]:

جعلت اليأس لي حصنا ودرعـــا فلم ألبس ثياب المستضـــــام
وأكثر من جميع الناس عنـــدي يسير صانني دون الأنـــــام
إذا ما صح لي ديني وعرضـــي فلست لما تولى ذا اهتمـــــام
تولى الأمس والغد لســـت أدري أأدركه ففيما ذا اغتمـــــام

ومن أجمل قصائده في هذا الباب هذه القصيدة التي أوردها الحميدي فيما يتعلق بالدهر وصراع الإنسان معه والذي لا يذيقه سوى الندم والهم والحسرة بعد أن تذهب اللذات وتزول المتع [44]:

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنـــا فجائعه تبقى ولذاته تفنـــــــى
إذا أمكنت منه مسرة ساعـــــة تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا
إلى تبعات في المعاد وموقـــــف نود لديه أننا لم نكن كنـــــــا
حصلنا على هم وإثم وحســـرة وفات الذي كنا نلذ به عنـــــا
حنين لما ولى وشغل بما أتـــــى وغم لما يرجى فعيشك لا يهنـــا
كأن الذي كنا نسر بكونـــــه إذا حققته النفس لفظ بلا معنـــى

وهذا البيت الأخير من أجمل أبيات الحكمة -في رأينا- لما فيه من صدق وإيجاز وتكثيف للمعنى.

وفيها تكرار للمعنى بصور مختلفة بغية تثبيته في الوجدان والأذهان معا، فالشاعر يستثمر حججا ويوظفها في شعره ويوجه المتلقي نحو النتيجة التي يبتغيها حينما يريد إقناعه بأفكاره والتأثير فيه، ولكون المحاجة تبحث في مقاصد المتكلمين فلا تقتصر الدراسة فيها على اللغة العادية فحسب بل يمكن تطبيقها كذلك على الخطاب الشعري حيث وظف ابن حزم أساليب إقناعية توظيفا يدعم حججه، فالشاعر يمتلك طاقات تعبيرية فذة، كما استخدم ألوانا بيانية أضافت لجمالية القول الشعري قوة حجاجية فكانت سبيلا في تحقيق الإمتاع والإقناع .

و(قد تختفي الحجة في الشعر وراء المعاني المجازية قد لا يتفطن المتلقي إلى الحجة الكامنة وراءها وقد تكون هذه المعاني المجازية في حد ذاتها حججا ويمكن تحديدها عن طريق تحليل المعنى وفهم مقاصد الشعراء وأهدافهم الإقناعية)[45] ،وهذا ما نلاحظه في ابياته الزهدية والوعظية من المعاني المجازية التي تضفي مسحة حجاجية ،وهي كالقصيدة السابقة تحذير للنفس من الإنسياق وراء ملذات الدنيا الفانية وعدم الاغترار بما قد يبدو من غضارة العيش فيها فهي غضارة ستذوي سريعا ويمحي لونها الأخضر بعد هذا القسم الخبري ينتقل إلى التعجب، تعجبه من ذلك الإنسان المغتر بالدنيا وبمتع الحياة مع أن الموت يلاحقه، فتبا لنفس لا ترعوي قادها لهو ساعة إلى العذاب[46]:

أعارتك دنيا، مسترد معارهـــــا غضارة عيش سوف يذوي اخضرارها
وهل يتمنى المحكم الرأي عيشــة وقد حان من دهم المنايا مزارهـــــا
وكيف تلذ العين هجعة ساعـــة وقد طال فيما عاينته اعتبارهـــــا

القصيدة فيها نفس وعظي حزين، كأنه وتر جنائزي، وقد ساعد على ذلك إيقاع القصيدة الذي يمتد بطيئا وحركة المد التي أشبع بها الروي "الهاء" مما جعل إيقاعها مردودا وممتدا وفي هذه الابيات تكرار التوبيخ للنفس الإنسانية وهي عند ابن حزم نفس أمارة بالسوء ميالة دوما إلى الأهواء والرغبات المادية، كما أنها عمياء في ميولها إلا من كبح جماحها بالعقل وألجمها بالتبصر في عواقب الأمور، هكذا يمضي في ابياته يقرع تلك النفس التي تنساق دوما وراء الملذات والمكاسب الفانية ضاربا الأمثلة بالأمم البائدة.

ثم ينتقل إلى تحليل الاضطرابات النفسية لذلك الشخص الذي لا يستطيع التحكم في نوازعه وميوله إما ضعفا أو خوفا من سلطة دنيوية وكأن ابن حزم يستبطن دواخله ولا عجب، فقد ألف رسالته مداواة النفوس وفيها استشفاف باطني لكل أحوال النفس البشرية وأهوائها وتقلباتها بين الحسد والطمع والرياء والنفاق و الانسياق مع الشهوات وكل الأمراض النفسية ومنها أبياته[47]:

أراك إذا حاولت دنياك ساعيـــا على أنها باد إليك ازورارهـــــا
وفي طاعة الرحمن يقعدك الونـــى وتبدي أناة لا يصح اعتذارهـــــا
تحاذر إخوانا سنفنى وتنقضـــــي وتنسى التي فرض عليك حذارها
كأني أرى منك التبرم ظاهـــــرا مبينا إذا الأقدار حل اضطرارها
هناك يقول المرء من لي بأعصـــــر مضت كان ملكا في يدي خيارهـا

وهكذا يمضي ابن حزم في تحليل مشاعر الندم والحسرة التي قد تنتاب هذا الإنسان ساعة الاحتضار وقد بقي وحيدا يواجه ربه بعد أن تبرأ منه كل الخلطاء يواجه ظلمة القبر ويستحضر يوم البعث مترقبا يوم الجزاء.

وكأننا عندما نقرأ هذه القصيدة نتتبع مع الشاعر السيناريو المحزن والمفجع للمصير الإنساني منذ شبابه وإقباله على الدنيا وانغماسه فيها إلى آخر رمقه، بل كأننا نشاهد شريطا لأطوار النفس

البشرية يعرضه ابن حزم أمام شاشة مكبرة وقد ساعده على ذلك توظيفه لكثير من الأساليب الإنشائية كالنداء والتعجب والاستفهام الإنكاري والأمر والنهي والتقريع...الخ.
كما تراوح أسلوب المحاجة الدينية بين الإخبار والطلب، مما منحها حيوية وإقناعا وتأثيرا، كما أن هذه الأساليب كلها تكشف عن توتر الشاعر وعن مشاعر التدين في نفسه.

الخاتمة

يكتسب الخطاب الشعري المبني على المحاجة تعدد القراءات اذ ان كل قراءة له هي إضاءة لجانب من جوانبه وكل تأويل هو محاولة لتقريب المعنى ، لان المحاجة في هذا الفهم جوهر الابداع وذلك من قبيل المحاورة التي تعكسها بين الذات والموضوع الاخر الذي يتنازعه الاخران فهي تعكس رؤية مثالية للواقع وما يجب ان يكون عليه الواقع فالشاعر يغالط من اجل اثبات شيء هو موجود بالضرورة الا ان اختلاف الآراء حالت بينه وبين الادراك واتضح ان الشاعر في المحاجة لايسعى الى بناء نظرية مشتركة وإنما يسعى إلى الى اثارة انفعال الطرف الاخر وهذا ما يجعل الحجاج فيها انفعاليا يحافظ على الاختلاف بين الطرفين

ومن هنا فإن للأساليب البلاغية دور بالغ الأهمية في دعم القوة الحجاجية للقول، إذ لا يستعملها الشاعر من أجل إضفاء المسحة الجمالية فحسب؛ بل كذلك من أجل الإقناع والتأثير، وعن طريق البحث في أنواع الحجج المستعملة في الشعر يمكن لنا التمييز بين الشعر الحجاجي والشعر غير الحجاجي. كما تضطلع الأساليب الإنشائية-والتي يسميها التداوليون اليوم الأفعال الإنجازية- والأساليب المغالطية بوظيفة حجاجية؛ لكونها تدفع المتلقي للإنجاز والعمل لذلك يكثر الشعراء من المغالطات التي يدفعون بها المتلقي الى بحث وتأمل والتعمق في فهمها ،لذلك نرى ان اسلوب المحاجة يهدف الى الاقناع انه " اسلوب يعتمد على المحسنات اللفظية و التأثير العاطفي " و بهذا فالأسلوب بحد ذاته يعد من تقنيات المحاجة ، التي يتوسل بها الشاعر بغرض التأثير و الاقناع فالأسلوب الغرض منه الامتاع و التأثير في المتلقي

حيث اعتمد ابن حزم في شعره براهين مباشرة و غير مباشرة مما يجعل المتلقي يولي اهتماما لشعره ، فانجع الحجاج ما وفق في جعل حدة الاذعان تقوى درجتها لدى السامعين المهيئين لذلك العمل في اللحظة المناسبة و المقام المناسب و هذا ما قمنا بملاحظته في المتون الشعرية

واتضح ان ابن حزم يقول الشعر استيحاء من المواقف النفسية التي كانت تعرض له ومن التجارب الحية التي يمر بها حيث لم يكن الشعر تهويما خياليا فحسب أو مجرد صنعة فنية أو تقليدا لتجارب الآخرين، بل هو سرد أدبي للواقع وتسجيل فني له لان الشعر عنده يكاد يطابق الحياة، حيث أسس ابن حزم -في رأينا- لغة غزلية أخرى مخالفة لما كان معهودا لدى معظم الشعراء وهي لغة قائمة على الصدق والواقعية وعلى تجارب عاطفية حقيقية مر بها.

ونلاحظ ان المحاجة يسعى من خلالها الشاعر الى التحليل والتفريع في شعره نتيجة ثقافته المتبحرة الواسعة كالأصول والجدل على الخصوص والفقه والتفسير والتاريخ... الخ خصوصا تلك الأشعار التي واجه ببها خصومه مجادلا.
وهناك إضافة إلى هذا عدة جوانب وصور يمكن التقاطها من شعره، جوانب أخلاقية وسلوكات بعض أفراد المجتمع الأندلسي وطريقة تفكير أهل عصره .

وختاما نشير الى ان الجمل في استعمالها لا تتحددّ بظاهر دلالتها دائما ،إذ يمكن ان يتخذ الظاهر ذريعة لتأويل تشترك فيه عدد من المعطيات الداخلة في الخطاب الشعري ،ذلك انه ينبغي التنبيه الى ان للجملة وظيفتين دلاليتين وظيفة اصلية قارة في القواعد المضبوطة ووظيفة متغيرة تبعا لتغير ظروف الاستعمال وهي وظيفة لا يمكن ان تقنن إلا حسب الظرف الاستعمالي للمتكلم والمستمع والمقام.

المصادر

1- الروابط الحجاجية في شعر المتنبي مقاربة تداولية، خديجة بو خشة رسالة ماجستير 2010 : 4
2- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني ،تحقيق محمد الحبيب بن خوجة ، دار الكتب الشرقية، تونس١٩٦٦ : ٧١
3- الروابط الحجاجية في شعر المتنبي :40
4- استرتيجيةالاقناع في شعرالمتنبي،خديجة بوخشة،الجزائرجامعة بوسعيده15:2014
5- لسان العرب المؤلف، محمد بن مكرم بن على أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري (ت 711هـ) دار صادر - بيروت الطبعةا لثالثة - 1414 هـ
6- الخطاب الشعري من المغالطة الى التأويل (امتاع بعد اقناع) د. تركي محمد مجلة سياقات العدد الخامس ابريل 2017 : 150
7- شعراء العرب المغرب والاندلس، يوسف عطا الطريفي، الاهلية للنشر والتوزيع، الاردن، عمان ، 2007: 101
8- ابن حزم بين الفلاسفة المتكلمين رساله دكتوراه،عبد السلام سعد،الجزائر37:1998
9- الامام ابن حزم الظاهري امام اهل الاندلس ،تأليف محمد ابو صعيليك،دارالقلم،دمشق ط1،124

10- وينظر ابن حزم الظاهري الامام ابن حزم الظاهري امام اهل الاندلس : 123، ينظر الادب الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ،منجد مصطفى بهجت ،دار الكتب للطباعة والنشر،1988: 26

11- م ن :167

12- طبقات الامم ، ابن صاعد الاندلسي (ت 462)، تحقيق ،لويس شيخو،ط1، بيروت 1330هجري :87، الصلة ، لابن بشكوال ، تحقيق ابراهيم الابياري ص416،ط2، 1410-1989

13- ديوان ابن حزم الاندلسي ،جمع وتحقيق عبد العزيز ابراهيم ،دار صادر، بيروت ،ط1، 2010: 63

14- طوق الحمامة في الألفة والآلاف،ابن حزم الاندلسي،تحقيق فاروق سعد ،منشورات دار مكتبة الحياة ،بيروت، 1986: 156

15- الشعر الأندلسي، بحث في تطوره وخصائصه،إميليو غارسيا غومس،تعريب حسين مؤنس،،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،ط1، 1952 : 80

16- دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ،الطاهر مكي، دار المعارف،ط4 1993: 67

17- رسائل ابن حزم،تحقيق احسان عباس ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط2 ،1987 ، ج1|234

18- ابن حزم حياته وادبه ابن حزم حياته وادبه،محمد ابو زهره ، دار الفكر العربي ،القاهرة ،1978: 243 ، وينظر ابن حزم ص 120

19- طوق الحمامة 9

20- م ن 10

21- م ن 11

22- م ن20

23- ديوانه: 164

24- م ن 211

25- م ن 163

26- نقد الشعر ، قدامة بن جعفر(ت337)، تحقيق محمد عيسى منون ،ط1 : 55

27- ديوانه: 28

28- طوق الحمامة: 116

29- ديوانه: 75،وينظر(حول حرق الكتب ابن رشد والجريمة الكبرى)))دراسات اندلسية مجلة علمية مختصة محكمة في الدراسات المتعلقه باسبانيا عدد 4 سنة 1998: 17

30- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس ،محمد بن عبدالله الحميدي ،الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، وينظر ابن حزم : 120

31- ابن حزم حياته وادبه: 239

32- تاريخ الأدب الأندلسي، احسان عباس،دار الثقافة،بيروت،لبنان ، ج 2/ ص 382.

33- رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها،ابن حزم الاندلسي، تحقيق د.احسان عباس، ص 355 / 356.
34- لسان العرب، 141/1
35- طوق الحمامة، ص 52-53
36- الإحكام في اصول الأحكام ، ابن حزم الاندلسي الظاهري،تحقيق احمد محمد شاكر،دار الافاق الجديده ،بيروت، ج1،2010 ، الصفحات(27-28)، وينظر ابن حزم الاندلسي المفكر الظاهري الموسوعي ، د، زكريا ابراهيم الدار المصرية للتاليف والنشر
37- طوق الحمامة : 139
38- م ن
39- الاخلاق والسير في مداواة النفوس،ابن حزم ،دار الافاق الجديدة ، بيروت ، 1979 380 وينظر ابن حزم ص 122
40- مداواة النفوس ص 380 وينظر ص 121ابن حزم
41- طوق الحمامة 20
42- ابن حزم حياته وادبه 236
43- طوق الحمامة 32
44- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس : 309
45- استراتيجية الاقناع في شعر المتنبي ،36
46- طوق الحمامة 311
47- م ن